طلائع الكفاح المراكشي ضد الحماية الاسبانية

١٩١٢ ـ ١٩١٩م

د . محمد علي داهش
كلية الآداب ـ جامعة الموصل
الجمهورية العراقية

السياسة الأسبانية في شمال مراكش ١٩١٢ ـ ١٩١٨م

مدخل :

أعلنت اسبانيا حمايتها على شمال مراكش (المغرب الأقصى) إثر الاتفاق الفرنسي الاسباني المبرم في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٢ ، ودخل الحكم الاسباني إلى جانب الحكم الوطني في إدارة شؤون المنطقة التي حددها الاتفاق ، وأصبح المندوب السامي الاسباني ممثل اسبانيا في منطقة نفوذها في شمال مراكش ، إضافة إلى احتفاظه بالسيطرة المباشرة بعيدا عن الحكم الوطني في مناطق النفوذ الاسباني في مليلية والحسيمة (النكور) وسبتة .

خضعت كافة الخدمات في البلاد لنفوذ المندوب السامي الجنرال ألفاو **Alfau** ، الذي سرعان ماستبدل بالجنرال مارينا **Marena** في آب (اغسطس) عام ١٩١٣م بعد فشله في مقاومة الشريف أحمد الريوني ، الذي بدأ يقاوم الاحتلال الاسباني مع بداية إعلان الحماية ، واستمر الجنرال مارينا في مهامه حتى آب عام ١٩١٥م حيث استقال ، وعينت اسبانيا بعد استقالته الجنرال جوردانه **Jordana** مندوبا ساميا .[١]

كان المنـدوب السـامي الاسبـاني عادة **رجـلا عسكـريـا** مقره مدينة **تطوان** التي احتلت في **١٩ شباط (فبراير) عام ١٩١٣م**، وأصبحت عاصمة المنطقة (الخليفيـة)[٢] ، وإلى جانبـه أنشئت خمسـة نيـابـات (وزارات) لتـدبـير شؤون المنطقة ، وهي :

١ - نيابة للأمور الأهلية .

٢ - **نيابة للثقافة والتعليم** .

٣ - نيابة للاقتصاد والفلاحة (الزراعة) ، وتربية المواشي والغابات والميزانية والصحة .

٤ - نيابة للأشغال العمومية .

٥ - نيابة للمالية[٣]

إن هذه النيابات الخمسة يشرف عليها ، ويديرها الاسبان .

وليس للمـراكشـين أي دخـل أورأي فيها[٤]، لكن السياسة الاسبانية **اقتضت الاستعانة بالوطنين** لتسيير أمورها في المنطقة ، فبعد إعلان الحماية ، أصبح الاسبان في حاجة ماسة الى فئة من الموظفين ، تتقن اللغة الاسبانية، تكون واسطة بينها وبين الشعب ، **ففتحت المدارس العربية - الاسبانية** لهذا الغرض ، **فيما استمر التعليم الاسلامي التقليدي** على حاله في بداية سيطرتهم[٥]، لكن فيما بعد أخذ التوجه الاستعماري الاسباني شكلا آخر ، حيث **بدأ الغزو الثقافي** للمنطقة من خلال العمل على نشر اللغة الاسبانية، لذلك أصبح هناك الكثير من أهالي الشمال يتحدثون اللغة الاسبانية[٦]، لأن الناطق بها يتمكن من ايجاد وظيفة له لدى السلطات الاسبانية .

* * *

كان يمثـل سلطـان مراكش في منطقـة النفـوذ الاسبـاني شخص يسمى (**الخليفـة**) ، وهـو بمثـابة النائب في إدارة المنطقة ، ولم يكن هذا الخليفة غير **أداة طيعـة بيـد المنـدوب السـامي الاسبـاني**، الـذي يقوم باختيار واحد من اثنين يرشحهـما السلطـان . وهما عادة من **الأسـرة المـالكـة**، وكـان أول خليفـة هو **الأمـير المهـدي بن اسـماعيـل** الـذي عين في ٢٧ نيسان (ابريل) عام ١٩١٣م، **ووقف إلى**

جانبه الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) والوزراء المختصون، كل في مجال عمله[٧]، وإلى جانبهم المشرفون الاسبان المسيطرون على شؤون الوزارات، أما عن العلاقات الخارجية، فقد أصبح المندوب السامي الاسباني، هو الذي يمثل البلاد مع الدول الأجنبية بموجب المرسوم الخليفي الصادر في ١٦ كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٦م[٨] .

تألفت منطقة شمال مراكش الخاضعة للنفوذ الاسباني من بضعة مناطق ادارية ـ عدا مناطق النفوذ الاسباني في كل من مليلية والحسيمة وسبتة ـ يحكمها الباشوات والقواد في المدن والنواحي ، وإلى جانبهم مراقبون من القناصل والضباط الاسبان ممثلون عن المندوب السامي يقومون بمراقبة المنطقة، وابلاغ المندوب السامي عن كل مايستجد في الحالة السياسية، والاشراف على الحالة الاقتصادية ، وتنمية الثروة في مناطق نفوذهم . وكانت قرارات الباشوات أوالقواد، لاتتم إلا بموافقة هؤلاء المراقبين[٩] .

* * *

إن الإمعان في النظام السياسي والاداري للمنطقة ، يوضح السيطرة الاسبانية التامة على الحكومة الوطنية، وذلك من خلال السيطرة على أهم مرافق البلاد . ومن خلال الرقابة المفروضة على معظم المناصب الادارية[١٠] .

إن قلة الطرق البرية المعبدة ، وانعدام المواصلات السلكية، ساهم في جعل المنطقة معزولة عن باقي أنحاء البلاد الأخرى ، ومما هومعروف فان السلطات الاسبانية تعمدت إهمال ربط هذه المنطقة بغيرها من مناطق مراكش، وذلك للحيلولة دون اتصال سكانها بإخوانهم في المناطق الأخرى[١١] ، ولم يكتف الاسبان بذلك ، بل عمدوا إلى الاستفادة من بعض العناصر المحلية للقيام بأغراض التجسس لحسابهم ، وكانت جزيرتي بادس والحسيمة القريبتين من مدينة أجدير، من أبرز مناطق التجسس، وكثيرا ماتخذت العمليات التجارية وسيلة للتغلغل بين السكان ، ومعرفة مايدور بينهم من أحاديث ، ووضع الخطط لمواجهة أية محاولة للثورة ، أو للعصيان على الأوامر، التي يصدرها المندوب السامي[١٢] .

إن السيطرة الاسبانية على كل مرافق البلاد ، توضح أن الحكم الاسباني كان حكما عسكريا صارما، لايترك للشعب أي مجال لممارسة حقوقه وحريته[١٣]، وكما وصفه أحد المؤرخين، فإن هذا الحكم لم يكن أكثر من « **استبداد عسكري واضح . . شديد الخشونة والقسوة**[١٤] .

* * *

أساليب التغلغل الأسباني في شمال مراكش :

تدرجت أساليب التغلغل الأسباني في شمال مراكش ، بين الغزو العسكري المباشر لمنطقة السواحل ، والتغلغل إلى داخل البلاد من جهة ، **وكسب بعض الفئات المحلية** ، التي تطابقت **مصالحها الاقتصادية** مع المحتلين من جهة أخرى . وقد مرت أساليبهم في التغلغل **بمرحلتين** أساسيتين ، كانت **الأولى** بين عامي ١٩١٢ ـ ١٩١٤ ، والثانية منذ عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨م

* * *

المرحلة الأولى ١٩١٢ ـ ١٩١٤م :

تميزت المرحلة الأولى **بالطابع العسكري المباشر**، وكان ذلك انعكاسا لما كان يجري في اسبانيا نفسها، حيث سيطر عدد من العسكريين على الحياة العامة في بلادهم، وحاولوا أن يفرضوا أنفسهم على سياسة اسبانيا الخارجية، ويسيطروا بالطريقة نفسها على منطقة نفوذهم في شمال مراكش، والتي حدَّدها الاتفاق الفرنسي الاسباني عام ١٩١٢م، وعلى ذلك وسع الاسبان مناطق نفوذهم ، من ثلاث قواعد رئيسية هي مليلية وسبتة والمنطقة الواقعة بين العرائش وطنجة . وتمكنوا من التقدم **باتجاه الداخل** إلى المناطق القريبة من السواحل[١٥] وفي هذه المرحلة استخدموا **العنف والشدة** ، في محاولتهم لغرض نفوذهم، اعترف بذلك أحد كتابهم حين قال : إن الأسبان في احتلالهم لمنطقة نفوذهم استخدموا التعسف والقوة سبيلا إلى السيطرة[١٦]، والاستيطان في البلاد، ويكشف عن ذلك السياسي الأسباني مورا عندما قال : بأنه إذا أصبحت هذه المنطقة خاضعة لنفوذنا « **فان واجبنا الأول هو طرد**

سكانها منها »[١٧]، **وقد عبرت اسبانيا عن سياستها الاستيطانية هذه** ، حين سمحت بالهجرة الأسبانية إلى المنطقة ، لاحلال رعاياها محل أصحاب البلاد المراكشيين في الأرض والادارة ، وقامت هذه السياسة على أن **العنصر المحتل يجب أن يسود مراكش** ، وان له حق الأولوية في كل الفوائد ، التي تسخرها الدولة ، أو تجود بها **الطبيعة**[١٨]، لكن هذا النهج الاستيطاني لم يأخذ مداه الواسع ، إلا بعد انتهاء الحرب الريفية، التي قادها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي منذ عام **١٩١٩**م وحتى عام **١٩٢٦**م، وكان ذلك بفعل المقاومة الجماهيرية ، التي بدأت منذ عام **١٩١٢**م ضد الحماية الأسبانية .

* * *

المرحلة الثانية ١٩١٤ ـ ١٩١٨م :

لجأت أسبانيا بسبب أحداث الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) **إلى اتباع الأسلوب السياسي** في السيطرة على منطقة نفوذها، التي حدّدها الاتفاق مع فرنسا، وقد سمي آنذاك بـ « **التغلغل السلمي** » **في المنطقة، ويقوم هذا الأسلوب الاستعماري على أساس الاستفادة من بعض القيادات المحلية** ، وخاصة من الملاكين ورؤساء العشائر ، لاحكام السيطرة على المنطقة ، ومن ذلك مافعله الجنرال جوردانه **مع الشريف** أحمد الريوني **في أيار (مايو) عام ١٩١٦**م[١٩] .

جاءت السياسة « السلمية » لأسبانيا تجاه المنطقة نتيجة لأوضاع داخلية وخارجية ، ارتبطت بالحرب العالمية الأولى بشكل أوبآخر ، ومن ذلك محاولة اسبانيا تجنب الاسراف في التكاليف قدر الامكان بسبب أوضاعها المالية **وبروز الحركات العمالية** ، فكان عليها عدم زج قطعات مجندة كبيرة في مراكش ، والاحتفاظ **بالجيش لتهدئة الحالة في اسبانيا**، رغم عدم رضاء الكثير من العسكريين على **هذه** السياسة[٢٠]، ولايمكن أن ننسى الدور الكبير ، الذي قامت به المقاومة المراكشية، **التي اضطرت الأسبان إلى التراجع عن النهج العسكري المباشر**، وترقبها للوضع الدولي **في** هذه الفترة، كما سنرى .

استطاعت اسبانيا ممارسة سياستها «السلمية» ، تجاه منطقة نفوذها ، خلال الحرب العالمية الأولى مع بقاء المقاومة المراكشية ، في بعض مناطق اقليم الريف ، وكذلك اقليم جبالة ، وأعلنت حيادها تجاه الصراع الدائر بين ألمانيا والدولة العثمانية من جهة ، وانكلترا وفرنسا من جهة ثانية[٢١]، فجنحت إلى التساهل مع القبائل المراكشية ، وتوقفت عن كل حركة ، انتظارا لنتيجة الحرب بين الطرفين ، التي سيكون لها تأثيرها المباشر في مصير مراكش ،[٢٢]، إذ أن فرنسا طرف في هذا الصراع ، وهي تتقاسم معها مصالحها في مراكش لكن ذلك « الحياد » لم يمنع الأسبان من الوقوف بشكل مباشر أحيانا إلى جانب الألمان ، ومن ذلك أنهم سمحوا لعدد من الضباط الألمان بالاستمرار في نشاطهم من العرائش وتطوان بعد أن عملت فرنسا على ملاحقتهم في منطقة نفوذها[٢٣] ، وقد أكد ذلك الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ، الذي كان يعمل موظفا لدى الأسبان في مليلية في هذه الفترة بقوله : إن الضباط الأسبان تعاونوا مع الألمان خلال الحرب العالمية الأولى في شمال مراكش لتغذية الحرب ضد فرنسا[٢٤]، ولربما أراد الأسبان من خلال ذلك تحقيق غرضين ،
أولهما : اتخاذ الوجود الألماني عنصر ضغط على الفرنسيين في مراكش الجنوبية ، ومحاولة خلق ثورة داخلية ضدهم ، على أمل توسيع منطقة نفوذهم .
وثانيهما : محاولة فرض النفوذ الأسباني على مراكش بأجمعها ، عن طريق الاعتماد على المساندة الألمانية ، إذا ما اكتسبت ألمانيا الحرب .

كانت نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م ، بداية لتغيير اسبانيا لسياسة الفتح السلمي ، والعودة إلى الأسلوب العسكري المباشر لغرض السيطرة على البلاد ، في الوقت نفسه بدأت المنطقة تشهد تصاعدا كبيرا في مقاومتها للنفوذ الأسباني ، وخاصة الفترة مابين عام ١٩١٩م ، كما سيتضح في القسم الثاني من هذه الدراسة .

* * *

المقاومة المراكشية ضد الحماية الأسبانية ١٩١٢ ـ ١٩١٩م :

تركزت المقاومة المراكشية للزحف الأسباني في منطقتين رئيسيتين هما : مليلية في اقليم الريف ، وسبتة في اقليم جبالة . وقد استمر الشريف محمد أمزيان

في قيادة المنطقة الأولى منذ عام ١٩٠٩ ، فيما قاد الكفاح في المنطقة الثانية **الشريف أحمد الريوني** زعيم قبائل جبالة بعد عام ١٩١٢م .

حركة المقاومة في جبهة مليلية :

تصدت قبيلة قلعية بقيادة **الشريف محمد أمزيان** للغزو الأسباني لمنطقة الريف منذ عام ١٩٠٩م . وبعد **معركة الديوانة** ، التي حدثت في نهاية عام ١٩٠٩م، والاندفاع العام للمراكشيين في هذه المنطقة لمساندة قبيلة قلعية، تقرر **عقد مؤتمر عام** لتنظيم عمليات المواجهة ، واعطائها طابعا شعبيا أوسع ، وعدم حصرها في حدود الجهود المبذولة لقبيلة قلعية ، وربما كان ذلك لتعزيز الامكانات البشرية والقتالية، ثم الاقتصادية لحركة المقاومة، وقد رسم المؤتمر استراتيجية للكفاح تمثلت بما يلي :

١ ـ تُخصص كل قبيلة عدداً من رجالها **يكونون ثابتين في معسكر المجاهدين** قرب مراكز الدفاع ، ولها الحرية في استبدالهم فضلا عن تجهيزهم بالمؤونة ، التي يحتاجونها .

٢ ـ اتباع **أسلوب متميز في توصيل أخبار الزحف الأسباني حال وقوعه**، لجميع القبائل ، وذلك بالعمل على إطلاق المشاعل النارية في كل مكان لتكون إشارة لتأهب القبائل لمواجهة هذا الزحف، ومما يلاحظ أن هذا الأسلوب استخدم لانعدام سبل الاتصال الحديثة للريفيين في هذه الفترة من كفاحهم .

٣ ـ **تجديد ترشيح الشريف محمد** أمزيان لقيادة حركة المقاومة، وتسيير شؤون المجاهدين ، وتنظيم عمليات الدفاع(٢٥) .

وضع المؤتمر بتلك **الستراتيجية**، الخطوط الأولى لظهور **القيادة الموحدة لقبائل المنطقة** ، وساعد ذلك بدون شك على إخراج المقاومة بالفعل من الإطاروالولاء القبلي ، **إلى الإطار الوطني** ، ومحاولة خلق النفسية الموحدة للقيام بفعل موحد تجاه العدو الاسباني ، وبهذا ضمن المؤتمرون طاقة بشرية واقتصادية ساعدت على **مواصلة قتال الأسبان** .

إن حدود المواجهة مع الأسبان ، لم تقف عند الاعداد العسكري، الذي قاده محمد امزيان، بل رافق ذلك محاولات عديدة للتعبئة **السياسية ، والوطنية لأهالي** المنطقة من خلال المؤتمرات ، والمحاضرات العديدة، التي قام بها **محمد العزوزي ،** وهو أحد **فقهاء** المنطقة، لتعريف الجماهير بالعدو الأسباني الغاصب[٢٦] ، حيث كان **أبرز العناصر الدينية** التي لعبت دورا في إثارة الحماس للجهاد في شمال مراكش ، **فقد وظف الدين على حقيقته الثورية في الكفاح ضد المعتدين** ، واستوحى امزيان والعزوزي ممارساتهما في الكفاح ضد الأسبان من « **الترغيب في الجهاد واكتساب الشهادة . . . وكان باب الجهاد في كتب الفقه هو الباب المفضل لتلاوة ماجاء فيه على مسامع المجاهدين في القرية والقبيلة والأسواق، ومجامع الصالحين في الزوايا وغيرها** »[٢٧] .

* * *

وقعت معارك عديدة منذ عام **١٩٠٩** وحتى عام **١٩١٢**م لعل من أبرزها ، معركة أحد بني شيكار، مرسى أركام ، تزكهارت، سلوان، اسفنغان، وادي الديب، أزروا، أزروهمار، تيكارمين، وادي الكرت، ومعركة الحمام التي استشهد فيها المجاهد امزيان في أيار عام **١٩١٢**م[٢٨] .

تزعَّم حركة المقاومة إثر وفاة محمد امزيان، أحد المجاهدين وهو **محمد بقيش**[٢٩]، فيما استمر الزحف الأسباني، بينما بقيت المقاومة المراكشية على حالها، وكبدت الأسبان الكثير من الخسائر في الأفراد والمعدات .

كانت نهاية عام **١٩١٥**م بداية **لتغيير اسبانيا لنهجها العسكري في فرض نفوذها على البلاد**، ذلك أن المقاومة الشعبية الصامدة في جبهة مليلية، أملت على القيادة العسكرية الجديدة المتمثلة **بالجنرال سلفستري Silvesitre** قائد المنطقة، إلى اتباع الأسلوب « **السلمي** » في مد النفوذ الأسباني نحو الداخل بعد أن **عجزت القوات الأسبانية** من النيل من قبيلة قلعية وغيرها .

اتبع سلفستري خطة التغلغل البطيء في داخل البلاد من خلال التمكن في المواقع الأسبانية ، ومحاولة اقتناص الفرص لتوسيع مراكز النفوذ في الداخل ، فقرر مايلي :

١ ـ العدول عن استعمال القوة ، أو تجهيز الجيوش للهجوم على مراكز المجاهدين .
٢ ـ تحصين المراكز التي في قبضتهم بتشييد البناءات ، وحفر الخنادق ، ومد الأسلاك الشائكة .
٣ ـ طلب المزيد من المال من حكومته لبذله في المنطقة ، ومحاولة شراء بعض رؤسائها ، واتخاذهم وسيلة لتمرير النفوذ الأسباني . فتمكن من خلال جزيرتي بادس والنكور (الحسيمة) من استقطاب بعض الشخصيات ذات النفوذ والداعية إلى المهادنة ، وبذلك تقوى « حزب أصدقاء اسبانيا » الذي اضطلع بمهمة تأجيج الخلافات بين القبائل الريفية ، قصد شل المقاومة الشعبية ، والقضاء على أية محاولة لتوحيد الجهود للقضاء على النفوذ الأسباني .
٤ ـ العمل على احتلال مراكز المجاهدين ، التي تبقى في بعض الأوقات فارغة ، واحتلالها ليلا ، وتحصينها ، ووضع قواته فيها قبل أن ينتشر خبر التقدم الاسباني[٣٠] .

وهكذا صار سلفستري ينفذ خطته إلى أن استولى بقواته عام ١٩١٩م على عدة قبائل ومناطق منها : قبيلة بني سعيد ، بني أوليشك ، مطاله ، جزء من بني توزين ، معظم قبيلة تمسامان ، تفرسيت ، أنوال ، مرسى سيدي ادريس[٣١] ، وعلى هذا أصبح معظم اقليم الريف في قبضة النفوذ الأسباني .

* * *

حركة المقاومة في جبهة سبتة :

أما في جبهة سبتة ، فقد قاد الشريف أحمد الريسوني المقاومة المسلحة منذ عام ١٩١١م ضد النفوذ الأسباني ومحاولاتهم للتغلغل إلى داخل البلاد ، وبعد إعلان الاتفاق الفرنسي ـ الأسباني في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٢م ، استمر الشريف الريسوني في مقاومتهم وغادر مدينة أصيلا ، التي كان باشا عليها بصورة نهائية

في ٢ كانـون الأول (ديسمـبر) ١٩١٢م ليـواصـل كفـاحه من منطقة الزينات، التي اتخـذهـا مقرا لقيادة المقاومة المسلحة ضدهم[٣٢] . وينقل ابن عزوز عن أحد الكتاب الأسبان قوله ان الشريف الريسوني : « بقي خلال شهر ديسمبر ١٩١٢م منهمكا في عمـل واحـد وهـو الاستعـداد للحـرب، وتنظيم المقـاومـة المسلحة في القبائل الجبلية للوقوف في وجه العمل الأسباني، حتى إذا انتهى من عمله هذا ، اعتصم بتازروت، وهناك قام باعلان الحرب ضد اسبانيا »[٣٣] .

وفي نيسـان من عام ١٩١٣م، قاد الشـريف الـريسـوني ومن مركـز إقـامتـه في تازروت في منطقـة الـزينـات عمليات تنظيم المقاومة ضد القوات الأسبانية في كل من شنشاون وتطوان، فعقد مؤتمر عين الدالية ، جمع فيه علماء جبالة وغمارة والساحل ، وانتخبه المؤتمرون زعيما لحركة المقاومة ضد الأسبان في هذه الجبهة[٣٤] .

تمخض مؤتمر عين الدالية عن قرارات عديدة منها :

١ ـ إعلان الجهاد ضد المحتلين الأسبان .
٢ ـ جعل مشاركة القبائل في تكوين « الحركات » أمرا اجباريا على كل من يمكنه حمل السلاح، وذلك عن طريق التناوب المعروف بـ « الأيدالة » .
٣ ـ تكـوين « محلة » ـ قوة عسكـريـة ـ نظـاميـة ، منظمـة على الطـريق العصرية تتكلف قيادة الثورة بتموينها وتزويدها بالسلاح والعتاد .
٤ ـ تكـوين لفيف متنقـل من (١٠٠) راجـل و(٥٠) فارس تكـون مهمتـه ربـط الاتصال بين المراكز المختلفة .
٥ ـ إحداث رباطات « مراكز » عديدة في الأماكن الاستراتيجية تقابل المراكز المهمة المحتلة من قبل الجيش الأسباني .
٦ ـ إحداث مخازن للسلاح والعتاد في كل قبيلة .
٧ ـ تعيين قائد على رأس كل قبيلة يكون مسؤولا عن الأمن وشؤون الجهاد في قبيلته .
٨ ـ تأليف مجلس أعلى للمقـاومـة مؤلف من سبـع مجاهـدين ، تكون مهمته اتخاذ القرارات الخطيرة، ويجتمع بطلب من الشريف الريسوني .
٩ ـ تأليف مجلس استشاري للمقاومة من فقهاء القبائل[٣٥] .

امتد الزحف الاسباني في هذه الفترة إلى المناطق الداخلية المجاورة للعرائش **وتطوان**، ووقعت الصدامات الأولى بين قوات الشريف الريسوني والقوات الأسبانية، وكانت أشهر المعارك هي معركة اللوزين قرب **تطوان في ١٥** حزيران/ يونيو عام **١٩١٣**م[٣٦]، حيث تكبد فيها الأسبان مائتي قتيل، أما المجاهدون فقد فقدوا قرابة ثلاثين شهيدا، وكان الشريف الريسوني يعمل من خلال معاركه على استدراج القوات الأسبانية إلى معاقله في الجبال لكي يتسنى له إيقاع أكبر عدد منهم في الأسر، ومعاملتهم كرهائن تُفدى بالمال، أو كما عبر عن ذلك بقوله، حتى « تصير عندي بضاعة للبيع »[٣٧]

استمرت المواجهة مع الأسبان بقيادة **الريسوني** طيلة عام ١٩١٤م، وعمت جميع سكان المنطقة وشملت جميع الجهات، وكانت أشهر معارك هذا العام هي **معركة بني سالم، ومعركة الصياد، وقاع أسراس**[٣٨] .

أرسل المقيم الأسباني الجنرال مارينا مع منتصف عام ١٩١٥م، مبعوثين عنه طالبا عقد الهدنة، إلا أن الجنرال سلفستري قائد القوات الأسبانية في هذه الجبهة، والذي عرف بالعنجهية والصرامة، نقض الهدنة **باغتياله أحد قادة المقاومة (علي القلعي)**، فأدى ذلك إلى استقالة الجنرال مارينا، ونقل الجنرال سلفستري إلى جبهة مليلية، وتعيين الجنرال جوردانه مقيما عاما بديلا له في **١٥** آب ـ اغسطس ـ **١٩١٥**م، حيث واصل **الأخير مباحثاته مع الشريف الريسوني** حتى تم عقد الهدنة في **٢٠** أيار مايو عام **١٩١٦**م، أوقفت جميع العمليات العسكرية في هذه المنطقة[٣٩] .
وتتلخص شروط الهدنة بما يلي :

١ ـ **تعترف اسبانيا بزعامة الشريف الريسوني الواقعية على جميع القبائل في منطقة جبّالة .**

٢ ـ **تدفع له مبلغا من المال** لانشاء محلة ـ قوة عسكرية نظامية، لايزيد عددها عن ألف جندي فارس وراجل، **تساعده في بسط نفوذه على القبائل** ويقال انه طلب مليونين من البيزتّا Peseta .

٣ ـ تمده بمقدار من السلاح مع ذخيرتها، وقدرت بـ **٥٠٠** بندقية ماوزر، ومائة مسدس مع القرطاس الكافي .

٤ ـ تفتح لقبائل جبّالة أسواق مدينتي تطوان وسبتة .

٥ ـ في مقابل ذلك يحفظ الشريف الريسوني الأمن في المناطق الجبلية ويمنع وقوع أي هجوم على الجنود الأسبان المرابطين على خط تطوان ـ الدشريين ـ سبتة ـ طنجة[٤٠]

كان هذا الاتفاق مسألة ضرورية لأسبانيا للأسباب التي أشرنا إليها سابقا، إضافة لعجزها عن تحقيق نصر حاسم على حركة المقاومة في هذه المنطقة. كما أن هذا الاتفاق كان مسألة ضرورية لحركة المقاومة من ناحية أخرى . فقد ادعت بعض المصادر، أن هذا الاتفاق أتاح الفرصة للمجاهدين لزراعة أراضيهم ، وحصد محصولاتهم لأنه « إذا نفذ مخزونهم من القمح والذرة والشعير في المطامر فلا معيل ولاتمويل » كما اعتبرته دليلا على دهاء ماكر باعتبار أن الشريف الريسوني فتك بالجيش الأسباني في مواقف الكفاح والجهاد ، وفتك به أيضا في عهود الصلح والسلم والمفاوضات[٤١] .

وعلى الرغم من هذه الهدنة ، فقد استمر الشريف أحمد الريسوني في مضايقة القوات الأسبانية ، ولم يصبح تابعا لهم كما كانوا يريدون ، يؤكد ذلك ماذكره المقيم العام الجنرال جوردانه ، من أن الشريف الريسوني « . . . لم يطرأ على سيرته العادية أي تغيير ، فهو لا يريد شيئا آخر سوى فرض قوانينه، علينا ، ويعمل إلى التهديد عندما يريد شيئا منا والى التسويف عندما نطلب منه أي شيء »[٤٢] .

وعلى الرغم من عدم قدرة المقاومة المراكشية على طرد الأسبان، أو ابقائهم في مواقعهم الساحلية السابقة، إلا أن صمود المجاهدين واستبسالهم في وجه الغزاة الأسبان ، قد أدى إلى تكبيدهم خسائر جسيمة في الأفراد ، بلغت بمجموعها نحو (١٠) آلاف قتيل وما يزيد عن (١٠٠) مليون بيزتا اسبانية، وتعد هذه الأموال أضخم ميزانية حربية في ذلك الوقت[٤٣]، ومع اتباع سياسة التوسع « السلمي » بين عامي ١٩١٦ ـ ١٩١٨م، فقد تناقصت خسائر الأسبان وقدرت بـ ٨٤٣ قتيلا[٤٤] .

إن من أبرز ماتميزت به المقاومة المراكشية الأولى للغزو الأسباني ، هو الطابع القبلي المقترن بالاندفاع العفوي لسكان المنطقة لمواجهة هذا الغزو ، كما تميزت بعدم

التنسيق بين قيادات المقاومة المراكشية ضد الأسبان من جهة، ومع القيادات المراكشية الأخرى في منطقة النفوذ الفرنسي بعد عام ١٩١٢م، ويبدو أن ذلك يرجع إلى عدم نضج الوعي السياسي والعسكري لقادة المقاومة في كل مكان من أنحاء مراكش، ومانتج عن ذلك من إغفال إيجابيات الجهد الموحد لمقاومة المحتلين الأسبان والفرنسيين، إضافة إلى ذلك، لم تكن هناك قيادة موحدة لتنظيم المواجهة مع الأسبان حتى عام ١٩١٩م.

* * *

تطلبت ظروف الصراع غير المتكافىء بين المراكشيين والأسبان بروز **شخصية سياسية قيادية**، تمتلك رؤية عميقة لطبيعة العلاقات المراكشية مع بعضها من جهة، ومع الأسبان من جهة أخرى، شخصية قيادية تفرض نفسها في المنطقة، **وتعرف امكاناتها القتالية، وهي تواجه امكانات الأسبان المتطورة والمتفوقة عليها في النواحي الفنية والتنظيمية**، بعد أن خلت ساحة الصراع من هذه الشخصية، بموت الشريف محمد امزيان، **وانكفاء الشريف الريسوني في معاقله في جباله. فكانت قبيلة بني ورياغل مؤهلة لهذا الدور بعد بروز رئيسها الفقيه عبد الكريم الخطابي**، ومن بعده ابنه **محمد بن عبد الكريم** بطل معركة أنوال عام ١٩٢١م وقائد الحركة التحريرية ضد الأسبان والفرنسيين حتى عام ١٩٢٦م.

مارس عبد الكريم الخطابي **المرونة السياسية** في التعامل مع الأسبان، في فترة مابعد اعلان الحماية عام ١٩١٢، ومع بداية السياسة السلمية لأسبانيا في المنطقة، فقد عرف أن المجابهة مع الأسبان في ظل امكانيات الريف المادية والقتالية سترجح كفتهم، **وعلى ذلك تعامل معهم منَ أجل توريد السلاح والمال للمنطقة، لخلق قاعدة قوية للمجابهة، تحت ظل مساعدتهم على فرض نفوذهم في البلاد**.

اعتقد المراكشيون أن نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م، سوف تصغي جميع المشاكل الاستعمارية. وأن الدول الصغيرة سوف تتمتع بحق تقرير المصير، لكن نهاية الحرب، **كانت بداية لاستئناف الأسبان لسياسة الفتح العسكري المباشر للمنطقة**(٤٥)، **وفيما يواصل الشريف الريسوني هجومه على المراكز الأسبانية، والذي**

بدأ منذ ٢٠ تشرين الأول ـ اكتوبر ١٩١٨م ، في الغرب ، بدأ **الفقيه عبد الكريم الخطابي يضيق ذرعا بمحاولاتهم لغرض الحكم العسكري المباشر على الريف . وبدعم من بعض الرؤساء المحليين**[٤٦] ، **فكان عام ١٩١٩م** بداية **لخروجه واعلان موقفه الصريح ضدهم** ، **ورأى أن الوقت قد حان للعمل** ، **فاستدعى ولديه محمد واحمد من مليلية واسبانيا** ، وكان وجودهما جزءاً من **خطة التقارب** ، التي مارسها مع الأسبان حتى يتمكن من الاستعداد لمواجهتهم ، فالتحقا به في أجَدير عام **١٩١٩** ، واجتمع الثلاثة مع أخيه عبد السلام الخطابي واستعرض الجميع الموقف وقرروا « بأن يحاربوا الاستعمار كيفما كان على العموم ، واسبانيا على الخصوص إلى آخر رمق »[٤٧]

أنذر عبد الكريم الخطابي الأسبان بخطورة عملهم ، لكن إنذاره لم يلق استجابة ، وإنما قاموا باستعدادات عسكرية لمواجهته ، وتوسيع مناطق نفوذهم ، وسيطرتهم العسكرية المباشرة على المنطقة ، وعلى ذلك **بدأت العائلة الخطابية بالقيام بتعبئة سياسية واسعة بين الأهالي وإفهامهم حقيقة المطامع الأسبانية** ، ورافق هذا الفعل التعبوي ، استعداد عسكري واضح ، حيث **رأس عبد الكريم الخطابي** كتيبة عسكرية من قومه بني ورياغل ، ورابط في الأمكنة التي قد يتقدم الأسبان منها ، وأسس مركزا عاما للمجاهدين في موضع يسمى « **وذيع** » مقابلا للمركز الأسباني في تفرسيت ، وعمل من هناك على خلق استعداد عسكري للمواجهة ، بأن قام بتدريب رجاله واعدادهم للقتال[٤٨] . وقد تمتع مركز وذيع بموقع استراتيجي ، **فهو** يشرف على المركز الأسباني بتفرسيت ، الذي كان يحرس تفرعا للسكك الحديدية ، وعلى ذلك شكل **بموقعه تهديدا حقيقيا للأسبان** ، كما كان وجود القوات الريفية في هذا الموقع مدعاة لثورة القبائل العربية في المناطق الأخرى الخاضعة للأسبان في اقليم الريف[٤٩] .

بقي **عبد الكريم الخطابي** في مركز وذيح حتى آب ١٩٢٠م ، وقد حاول **الأسبان خلال هذه الفترة استمالته لكنهم عجزوا** عن ذلك . بعد فترة **أصيب بنزيف وحمل إلى أجدير** ، ودعا نجليه وأوصاهما الوصية الأخيرة « **بأن يقاوما الزحف الأسباني بكل جهدهما ، فاذا عجزا فليغادرا البلاد نهائيا ، فليس لحرّ أن يقيم في بلد محتل . .** »[٥٠]

أجمع زعماء قبيلة بين وورياغل بعد وفاة عبد الكريم الخطابي في ٢٠ آب - اغسطس ١٩٢٠م على توليه ابنه الأكبر محمد رئيسا للقبيلة ، ومع بداية توليه استمر في مهمة استئناف تنظيم عمليات المواجهة ، ولم يكن عدد المجاهدين ومن انضم إليهم **يتجاوز (٢٠٠) مجاهد** عندما بدأ يصارع الأسبان ، فبدأت مرحلة جديدة وجدية من المواجهة الحادة مع الأسبان مع بداية الحركة التحريرية الريفية ، بقيادة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي عام ١٩٢١ .



(هوامش ومصادر البحث)

(1) Henry Marchat : La Frace et l'espagene au maroc perdabnt la Periode du Protectorat (1912 - 1956), revue de l'occident Musulman et del la med terrance, Vol, 10, 1971, p. 81

علي الريسوني : أبطال صنعوا التاريخ ، ط١، المطبعة المهدية (تطوان ١٩٧٥م) ، ص٦٧، ١٧٧ .

(٢) **جون جنتر** : داخل أفريقيا، ترجمة حسن جلال العروسي، مكتبة الأنجلو المصرية ، (القاهرة ١٩٥٧م)، جـ١، ص١٨٨ .

(٣) **عبد الحميد بن أبي زيان بنشنهو** : البيان المطرب لنظام حكومة المغرب، ط٢، مطبعة الأمنية (الرباط ١٩٥١م)، ص٦٧٦ .

(٤) **رابطة الدفاع عن مراكش** : مراكش تحت النفوذ الأسباني، مطبعة المليجي ، (القاهرة ١٩٤٧م)، ص٣٨ .

(٥) **عبد المجيد بن جلون** : هذه مراكش ، ط٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة ١٩٧٠م)، ص١٤١

(٦) **روم لاندو** : مراكش بعد الاستقلال، ط١ ، ترجمة خيري حماد ، دار الطليعة (بيروت ١٩٦٠م) ، ص٣٠٩ .

(٧) **ابن جلون**، المصدر السابق، ص٨٧، جنتر، المصدر السابق، جـ١، ص١٨٣ - ١٨٤ ؛ **حكمت شبر** : الجوانب القانونية لنضال الشعب العربي من أجل الاستقلال ، دار الحرية للطباعة والنشر ، (بغداد ١٩٧٤م) ، ص١٢٦

(٨) **ابن جلون**، المصدر السابق، ص٩٢ .

(٩) **المصدر نفسه**، ص٩٤، ١٣٥ .

(١٠) **المصدر نفسه** ، ص٩٦ .

(١١) **ابراهيم الشريفي** : المغرب الأقصى قديما وحديثا، بلا (لا . ١٩٥٣م)، ص١٣ ؛ **محمد عبد المنعم ابراهيم المحامي** : الأمير عبد الكريم بطل الشمال الأفريقي، ط١، المكتبة العلمية ومطبعتها (القاهرة ١٩٥٨م)، ص١١، ٥٢ - ٥٣

(١٢) **المحامي**، المصدرر السابق ، ص٥٥ - ٥٦، علال الفاسي، المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى، معهد الدراسات العربية العالية؛ (القاهرة ١٩٥٥م) ص٢٩ - ٣٠ .

(١٣) **ابن جلون**، المصدر السابق، ص١٠٩

(١٤) **V. Marules Lezcaro:** Quelgues observation sur le Protectorat Espargol au Maroc, P98

كما ورد في المجلة التاريخية المغربية (تونس) العددين ١٣، ١٤، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩م .

(١٥) **جلال يحيى** : عبد الكريم الخطابي ، المؤسسة العامة للتأليف والنشر (مصر ١٩٦٨م)، ص٣٧، ٣٤ - ٣٥

(١٦) **Lezcaro,** op.cit, p. 97.

(١٧) **عبد الرحيم بن سلامة** : **كفاح المغرب من أجل الحرية والديمقراطية، دار النجاح، (بيروت ١٩٧٥م)**، ص٦٩ .

(١٨) **علال الفاسي** : حماية اسبانيا في مراكش، ط١، مطبعة الرسالة، (القاهرة ١٩٤٨م)، ص٤٨ .

(١٩) **جلال يحيى** : **المغرب الكبير ، الدار القومية للطباعة والنشر ، (الاسكندرية ١٩٦٦)، جـ٣، ص٩٦٣-٩٦٥**

(٢٠) **Pennell, C. R:** Law, order and the formation Of an Islamic resistance of European colonialism: The Pif 1921 - 1926. p.28

كما ورد في المجلة التاريخية المغربية، العددين ٢١ ، ٢٢ ، نيسان (ابريل ١٩٨١م).

(٢١) **المحامي** ، المصدر السابق، ص٣٣ .

(٢٢) **أمين سعيد** : ثورات العرب في القرن العشرين، دار الهلال (لا . ت) .

(٢٣) **يحيى**، المغرب الكبير، جـ٣، ص٩٥٠.

(٤) **Robert Mortagre** :Revolution Au Maroc, Edition France Empire (Paris 1968) p.150

(٢٥) **محمد محمد عمر القاضي** : أسد الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي، مطبعة ديسبريس، (تطوان ١٩٦٠م)، ص٤٤-٤٥ .

(٢٦) المصدر نفسه، ص٤٥ .

(٢٧) **أحمد البوعياشي** : حرب الريف التحريرية ومراحل النضال، نشرة عبد السلام جسوس وسوشبريس، (طنجة ١٩٧٤م)، جـ١، ص٧٠، ٤١٧، ٤٣٠ .

(٢٨) **القاضي** المصدر السابق، ص٤٥، **البوعياشي**، المصدر السابق، جـ١، ص٤٤، ١٠٠-١٠١

(٢٩) **الطيب الأزرق** : « مشروع دستور جماعة لسان المغرب، دراسة تحليلية نقدية مجلة تاريخ المغرب، العدد (١) السنة (١)، الرباط ١٩٨١، ص١٠٥ .

(٣٠) **القاضي**، **المصدر** السابق، ص٥٢-٥٣، التمسماني، «المقاومة الشعبية في شمال المغرب»، **مجلة** العربي، العدد ٢٨٨، الكويت ١٩٨٢م، ص٣٨ .

(٣١)) **القاضي**، المصدر نفسه، ص٥٤

(٣٢) **محمد بن عزوز حكيم** : موقف الشريف الريسوني من الاستعمار الفرنسي، مطابع الشويخ (تطوان ١٩٨١م). ص١١١ .

(٣٣) **محمد بن عزوز حكيم** : الشريف الريسوني والمقاومة المسلحة في شمال المغرب، مطبعة الساحل (الرباط ١٩٨١)، جـ١ . ص٥٥ .

(٣٤) **الريسوني**، **المصدر** السابق، ص١٤٢-١٤٣ .

(٣٥) **المصدر نفسه**، جـ١، ص٩١-٩٥ .

(٣٦) **الريسوني** ، **المصدر** السابق، ص١٤٥-١٦٠ .

(٣٧) **أمين الريحاني** : **المغرب الأقصى**، رحلة في منطقة الحماية الأسبانية، دار المعارف (القاهرة ١٩٥٢م)، ص٣٨١ .

(٣٨) **الريسوني** ، المصدر السابق، ص١٧٣ - ١٧٤

(٣٩) المصدر نفسه، ص١٧٥ - ١٧٦

(٤٠) **سعيد**، المصدر السابق، ص١٩٥، البوعياشي، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٦ .

(٤١) **علي الريسوني** : الذكرى السنوية لمعارك احتلال رباط زاوية تازروت، ط٢، مطابع الشويخ، (تطوان ١٩٨٢م) ص١٠ - ١١ .

(٤٢) تقرير من الجنرال جوردانه إلى وزير خارجية بلاده في ١٨ تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٩١٨، عن ابن عزوز، موقف الشريف الريسوني ، ص١١٧ .

(٤٣) **علال الفاسي** : الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، عبد السلام جسوس، (تطوان ١٩٤٨م)، ص١٠٦؛ ابن جلون، المصدر السابق، ص١٧٣ .

(٤٤) Pennell Op.cit, p.29

(٤٥) ابن جلون، المصدر السابق، ص١٧٦ .

(٤٦) **Jamil, Abur-nasr** : Ahistory of the Maghrib, Cambridge University Press. (Cambridge 1975), p. 364.

(٤٧) **القاضي**، المصدر السابق، ص٦٤ .

(٤٨) **المحامي**، المصدر السابق، ص٤١؛ القاضي، المصدر نفسه، ص٦٤ .

(٤٩) **M. S. Lutskaya** : Ocherki Noveishei Istroli Marocco, (M. 1973), p. 75

نقلا عن هاشم التكريتي، معركة أنوال، المؤتمر العلمي الأول، تاريخ العرب العسكري، (بغداد ١٩٨١)، ص٤

(٥٠) **سعيد**، المصدر السابق، ص١٧٩ .

